الآثار الإسلامية في اجدابيا (تقرير مبدئي عن موسم الحفائر الأول

إعداد : د. وايت هاوس – ترجمة : عبد الله علي الرحيبي *

دعت مصلحة الآثار جمعية الدراسات الليبية سنة **1971** ف لتقوم بتنفيذ حفيرة اختبارية في اجدابيا بهدف تحديد مدى اتساع الاستيطان الإسلامي في القرون الوسطى ، والتحقق مما إذا كان الموقع يستحق استكشافاً أكثر من ذي قبل . وكانت نتائج التكهن بما يحتمل اكتشافه مشجعة .

ويشير الدليل الوثائقي إلى أن اجدابيا كانت مدينة تجارية في القرن التاسع إفرنجي تلتقي عندها طريق القوافل وكانت مزدهرة تحت الحكم الفاطمي ثم تدهورت أوضاعها بدرجة كبيرة عندما غزت قبيلتا بني هلال وبني سليم المغرب سنة **1051** ف وعلاوة على ذلك فإن حفائر مبكرة كشفت عن أثرين من القرون الوسطى : قصر وجامع منهارين من الواضح أنهما فاطميان . وكما هو متوقع ، فإن الحفيرة الاختبارية التي سبق وصفها في تقرير الجمعية السنوي لعام **1971** ف ، قدمت نتائج إيجابية ، وفي إبريل (الطير) **1972** بدأنا موسماً ثانياً أكبر ،حيث قمنا بإجراء حفائر في الجامع ، وتم وضع مخطط مفصل لبقايا القصر . وقد بذل السيد السعداوية [رئيس المصلحة] والسيد عبد الحميد كل ما في وسعهما لإنجاح الموسم ، أما السيد الورفلي المفتش المرافق لنا فقد قدم مساعدة قيمة أثناء العمل في الموقع ، ويتكون فريق الجمعية من تسعة أعضاء : هيلد اينقر ، وسارة جين ، وروث وايت هاوس ، وجورج اينقر ، ووورويك بول ، وبيتر دونالدسون ، وديفد جيفري ، وجون موريش ، وكاتب هذا المقال ، ووفرت مصلحة الآثار مكان الإقامة والأيدي العاملة . وقد سمحت أمانة المتحف البريطاني – بكل لطف – للسيد نيكولاس لوويك بمرافقتنا من أجل دراسة العملة والنقوش وقد أعارنا – بكل كرم – قسم الهندسة المدنية بالكلية الإمبراطورية للعلوم والتقنية معدات المسح . وكان المشروع نتيجة لذلك عملية متآزرة مثمرة ، وأود في هذا الشأن أن أتقدم بجزيل الشكر إلى كل أولئك المعنيين .

---

* أستاذ مساعد بقسم الآثار ، كلية الآداب ، جامعة قاريونس ، بنغازي ، ليبيا .

الموقع :

تعد اجدابيا اليوم مركزاً إدارياً مزدهراً تقع عند النهاية الشرقية لخليج سرت ، وتبعد عن بنغازي بحوالي 150 كم ، وعن الساحل بحوالي 18 كم (ش1) . وهي تقع ضمن إقليم صحراوي قاحل تحيط به هضاب رملية وحصوية منخفضة ، ومسطحات ملحية في اتجاه البحر . ولها طقس قاس ولا توجد حولها تحصينات طبيعية . وعلى أية حال يتوفر في الموقع الماء الذي يعد أحد المقومات الأساسية للحياة . وهي مياه قليلة الملوحة قابلة للشرب ، وقد أشار البكري (القرن الحادي عشر) في معرض حديثه الوافي عن اجدابيا إلى وجود نبع للمياه العذبة (عبد السيد 1964 : 115) . ولهذا السبب أصبحت اجدابيا مدينة مزدهرة بحركة القوافل ، ذات وظيفتين مهمتين : الأولى ، كونها مكان استراحة على الطريق الرئيسي عبر شمال أفريقيا من مصر إلى المغرب ، والثانية كونها تقع عند نهاية الطريق الممتد عبر الصحراء من واحتي جالو والكفرة وأخيراً من السودان . وكانت اجدابيا مدينة مهمة ، لكونها استراحة على الطريق الساحلي ،

وهي المستوطنة الأكبر على حافة الصحراء السرتية . ويعطي ابن خرداذبه (القرن التاسع الإفرنجي) قائمة تحتوي على 21 محطة بين برقة وطرابلس تبعد كل واحدة منها عن الأخرى التي تليها بما يعادل 50 كم تقريباً (حاج-صادق 1949 : 5) . ويرتفع معدل المسافة بين المحطات في الصحراء الواقعة غرب اجدابيا إلى 60 كم ، الأمر الذي يجعل هذا الامتداد الأكثر مشقة من الرحلة . وكانت اجدابيا مصدراً ملائماً للإمدادات ، وقد جنت أرباحاً من وراء ذلك ، وزيادة على ذلك ولكون اجدابيا تشكل النهاية الشمالية لطريق القوافل القادم من الجنوب ، فإن المدينة كانت سوقاً للبضائع الوافدة من الواحات والسودان التي ربما بيعت لسادة تجارة القوافل من ميناء الماحور القريب .

وتظهر الوثائق أن اجدابيا في القرون الوسطى مدينة ذات أهمية ثانوية ، لها حاكم مقيم ، وجامع ، وأسواق ، وفنادق ، وحمامات ، وكانت مدينة تلتقي عندها الطرق ولها ميناء . ويبدو أن هاتين الظاهرتين الأخيرتين ، في الحقيقة ، أحد مميزات مدن الساحل الليبي الثانوية ، ولدينا مدينتان تتميزان بأهمية إقليمية تفوق أهمية المدن الساحلية الأخرى إنهما : برقة في الشرق ، وطرابلس في الغرب إذ تعد كل منهما مركزاً إدارياً كبيراً . وامتلكت طرابلس التي تعد ميناء

قيادياً للتجارة الإسلامية مع صقلية وأوروبا لبعض الوقت داراً لصك العملة . ويلي طرابلس وبرقة في الأهمية المدن الثانوية الأخرى مثل اجدابيا وسرت إذ إن لكل منها حاكماً ، وتجارة قوافل نشطة وميناء . وأخيراً لدينا المستوطنات الصغيرة ، وهي عبارة عن أسواق محلية واستراحات على طول الطريق .

إن أصول اجدابيا التاريخية ليست واضحة ، وتشير نقوش تعود إلى أواسط القرن الأول الإفرنجي حفرت على صخرة بجانب أحد الآبار إلى وجود جنود رومان في المنطقة التي تسمى حسب خريطة بيوتنجر "كور نيكلانم" (قودتشايلد 1915 : 15 ؛ 16) . احتلت كور نيكلانم مكاناً رئيساً مهماً بسبب مياهها العذبة ، وحركة القوافل ، وموقعها الاستراتيجي . وقد وجدنا خلال هذا الموسم نقشاً رومانياً جديداً ، وسجلنا موقعين رومانيين جديدين في المنطقة المجاورة ، وأصبحنا ، في الحقيقة نعرف الآن أن مجموعة من المواقع الأثرية توجد في إقليم اجدابيا .

ولدينا ، في اجدابيا نفسها ، النقوش المنفذة على الصخر ، وسبعة أجزاء من نقوش معادة الاستعمال في بناء الجامع . يحتمل أن هذه النقوش (SEG. IX ، 773-95) جاءت من مبنى عسكري ؛ إذ أهن بعضاً منها أسماء شخصية ، ويحتوي عدد منها على بعض الكلمات مثل كلمة جندي و كلمة قائد المائة (Centurion) . كذلك توجد قلعة رومانية صغيرة تسمى الحنيوة جنوب اجدابيا بثمانية كيلومترات ، وتوجد مستوطنة ربما تمثل الميناء على الساحل عند الزويتينة ، كما توجد قلعة صغيرة جداً قرب الميناء النفطي تقع على طول الشاطئ قرب المستوطنة الأولى بكيلو مترات قليلة ووجدنا أيضاً جزءاً من نقش إغريقي في مقبرة حديثة تقع جنوب اجدابيا بعشرين كيلومتراً ، وتفحصنا مزرعة رومانية محصنة تبعد عن اجدابيا بتسعين كيلو متراً على طريق جالو . هذه المزرعة المحصنة المعروفة بسيدي الصحابي اكتشفها أعضاء الآثار وقد طلبوا منا تخطيطها وتصويرها . وتقع هذه المزرعة وسط قلعة إيطالية لكنها مختفية جزئياً خلف مبنى حديث . وعلى الرغم من أن بقايا المبنى المنهارة مغطاة بالرمال ، إلا أن المخطط يرى بوضوح (ش2) . فهو مربع الشكل طول ضلعه 15 م ، ويشبه المزارع المحصنة المعروفة في الجزء الغربي من ليبيا مثل قصر الدويب (JRS 1949 : 88) . لا يحتوي المبنى على أبراج ، ولكن يحتوي على سلم يتكون من درج يقود إلى نقطة مناسبة على

السقف . يشتمل المبنى على سبع غرف تحيط بفناء مربع طول ضلعه 6 م . وتتكون الجدران من حجارة مملطة ، والسقوف ذات قباء أسطوانية ، والأبواب ضخمة نصف دائرية الشكل (لوحة 1 أ) .

وقد أعيد بناء المزرعة في فترة ما في العصور الوسطى إما لتكون حصناً أو ربما قبراً لصحابي ، أصبح المبنى يحمل اسمه فيما بعد . وقد رممت الجدران الأربعة (لوحة 1 ب) ولها عقود متقنة البناء من نوع حدوة الحصان ، وسجلنا وجود جزء من مثلث كروي الشكل في أحد الزوايا مما يؤكد أن المبنى كان متوجاً بقبة . إن هذا المبنى مجهول التاريخ ، وحسب وجهتي النظر الرومانية والإسلامية يستحق تقصياً أكثر مما سبق .

وعلى أية حال ، مهمتنا الأساسية تتمثل في إقامة حفائر في اجدابيا ، وبصفة خاصة لمعاينة المسمى بجامع سحنون .

الجامع الفاطمي :

إن الجامع المسمى اليوم بجامع سحنون هو جامع فاطمي منهار . ولم يتبق منه في القرن التاسع عشر إلا المئذنة ، وأجزاء من رواق القبلة كانت لا تزال قائمة . وعندما زار جون ريموند باشو اجدابيا سنة 1824 ف قام برسم بقايا الجامع ثم نشر نسخة من الرسم في كتابه الذي تضمن أخبار الرحلة (لوحة 2 أ) ورغم أن الرسام أخطأ في فهم الواقع المنظوري للموقع ، إلا أن لوحته تعطينا معلومات مهمة عن المحراب وواجهة رواق القبلة . وأن ارتباط بقايا الجامع بالمرابط سحنون جعلها تحظى بالاحترام من قِبل المواطنين حتى في القرن التاسع عشر ، وقد بني مسجد صغير في الموقع متضمن المحراب الفاطمي وذلك بعد زيارة باشو بوقت طويل وتوجد مقبرة تحيط بالجامع ما زالت تمثل المقبرة الخاصة بالمدينة .

بدأت مصلحة الآثار الحفر عن الجامع سنة 1954 عندما تلاشت كل بقايا المبنى التي كانت واضحة في القرن التاسع عشر ، حيث تم الكشف عن الصحن والأروقة المحيطة به . وبناءً على دعوة من مصلحة الآثار بدأت الجمعية سنة 1971 العمل في الجامع ، ثم عدنا في الربيع الماضي بهدف توضيح المخطط . قمنا بتفحص الحفيرة القديمة ، وكشفنا عن البقايا المدمرة لجامع القرن التاسع عشر ، وأنجزنا سلسلة من الحفائر في رواق القبلة ، وعلى محيط

المبنى الفاطمي . ومع نهاية الموسم أصبح في استطاعتنا – وضع مخطط للجامع الأصلي بـبعض من الثقة .

تصل أقصى أبعاد جامع سحنون إلى 47 × 31 م (ش3) . وهو مستطيل تقريباً ، فالباني قليل الاهتمام بالزوايا السليمة أو الخطوط المتوازية ، كما هو الحال في الجامع العظيم في سوسة (تونس) . وقد بني الجامع بالحجارة واللبن معاً : الحجارة للمئذنة ، والدعامات ، وعضـادات المداخل ، والعناصر الأخرى الحاملة للثقل ، واستعمل اللبن في بناء الجدران . وقد بين حجـر البناء الأصلي على المخطط المبسط المنشور مع هذا المقال باللون الأسود الداكن ، وبين اللـبن بالخطوط المظللة ؛ وحذفت كل الملامح الثانوية .

يتمثل المخطّط البسيط لجامع في صحن محاط برواق مفرد من جوانبه الأربعة مزود بثلاثـة مداخل ، فتح إحداها في المحور وفتح المدخلان الآخران في الجانبين . وتقف المئذنة على يسار المدخل المحوري . ورغم أننا كشفنا عن جزء فقط من رواق القبلة (لوحة 2 ب) فقد وجـدنا أدلة كافية للتعرف على المخطط الأصلي . يتكون رواق القبلة من أربع بلاطات أفقية وتسـع بلاطات عمودية على جدار القبلة . ويشير توزيع الدعامات والأعمدة إلى أن رواق القبلة يتبع نظام حرف T في مخططه : بمعنى اتصال المجاز الواسع ببلاطة جدار القبلة الواسعة هي أيضاً في المنتصف أمام المحراب . ويحتمل أن المنطقة المربعة التي تكونت عند التقـاء سـاق حـرف T وذراعيه كانت مغطاة بقبة . وقد استعمل هذا النظام في المخطط بشكل واسع في المغرب حيث نجد أحسن تصوير له في النموذج المحلي المتمثل في الجامع العظيم في القيروان ، كما بناه زيادة الله بن الأغلب سنة 838 ف . يرتفع سقف بلاطتي المحراب وجدار القبلة في جامع القـيروان أكثر من ارتفاع بقية سقف رواق القبلة ، وتتوج [قبة البهو] مقدمة بلاطة المحراب (المجاز) في حين توجت قبة أخرى نقطة التقاء البلاطتين أمام المحراب .

وقد دمرت المئذنة تقريباً بالكامل فيما بين 1934 و 1954 ف ، ولم يتبقِ منها اليوم إلا القاعدة المربعة فقط التي يصل طول ضلعها إلى 3,5 م (لوحة 3 أ) وتتصل هذه القاعدة بسلم حجري يتكون من مجموعة من الدرج ارتفاعه متران تقريباً . ونحن محظوظون بامتلاك قسـم المحفوظات في مراقبة آثار شحات صوراً ضوئية للمئذنة التقطت حوالي سنة 1934 ف عندما

كانت أفضل حالاً من وضعيتها الحالية . وتبين الصور قمة القاعدة المربعة والمدماكين الأولين من البدن المثمن [ثلاثة مداميك] .

ويلاحظ أن السلم مدفون كلية في التراب ، وإذا كانت مداميك البناء متساوية العمق ، فإن القاعدة كان ارتفاعها أربعة أمتار على الأقل . واقترح أنها امتدت إلى ارتفاع السقف ثم يرتفع فوقها بدن مثمن . ويحتمل أن السلم الخارجي امتد إلى قاعدة البدن المثمن الذي ربما احتوى على سلم حلزوني .

تتكون واجهة رواق القبلة المطلة على الصحن من سلسلة من الدعامات المزخرفة على الوجه الخارجي بحنايا نصف دائرية الشكل مختلفة الأحجام ، بحيث توجد حنيتان واسعتان في مركز الواجهة وتوجد الحنايا الضيقة في الجانبين . ويوجد من بين الحجارة المنهارة قرب الواجهة محارتان مكسورتان ، من المؤكد أنهما قمتا الحنيتين المركزيتين .

وفيما يتعلق برواق القبلة نفسه ، نجد أن اللوحة 2 ب تمثل منظر المنطقة المحفورة في اتجاه امتداد الجاز نحو المحراب المنهار . وتوضح مقاييس الرسم أماكن الأعمدة التي أتلفت بدرجة كبيرة . تتكون أعمدة من ثلاثة عناصر : عمودان دائريان يقفان مباشرة على الأرضية ، وعمود ثالث يقف على قاعدة مستطيلة . واتضح ، على الفور ، أن القواعد لم تكن أصلية ، وقد وضعت في حفر معمولة في الأرضية الجصية البيضاء مثبتة في مكانها بملاط رمادي متميز . وهكذا يرى في مخطط الجامع الأصلي المعدل ، أن مجموعات من عمودين (وليس ثلاثة) تدعم الجاز ، في حين تقف اثنتان من الدعامات المركبة ، كل واحدة ذات مخطط رباعي ، أمام المحراب حيث يتقابل الجاز مع بلاطة جدار القبلة . أما المحراب نفسه فهو في شكل حنية مقعرة عميقة . وكان يجاوره من كل جانب عمود جداري ، يبين رسم باشو أحدهما يحمل تاجاً شبيهاً بذلك الذي وجد ضمن كسار الحجارة قرب واجهة الرواق . وقد دعمت الجدران الخارجية بأركان ضخمة ، كشفنا عن ركنين يدعمان الزاوية الجنوبية الشرقية لجدار القبلة والزاوية الشمالية لواجهة الجامع ، وركن كان يرى على السطح . ويظهر ركنان من هذه الأركان فيما يعرف بظهر حمار . ويذكر المبنى بجدرانه ذات الأركان القوية بالمظهر الخارجي للجامع العظيم في القيروان الذي دعم بأركان موزعة على مسافات مختلفة . وجدت مجموعة كبيرة من الجص في الجامع ، جاءت بشكل مؤكد من منطقة القبة أمام المحراب ، ومن واجهة

رواق القبلة . ويحتفظ متحف شحات بالجص الذي وجد في حفائر سنة 1954 ف ، وهو في الأغلب لوحات تظهر تصميمات مقولبة تحتوي على حليات دائرية كبيرة وصغيرة متجاورة تتضمن كل منها شكل وردة ، وموضوعاً نباتياً أو لولبياً . ويشبه نموذج على أحد الأجزاء الجصية ألواحاً حجرية من المنستير ومن مواقع أخرى في المغرب العربي . وهناك اكتشاف غير متوقع تمثل في مزولة شمسية من الحجر موجودة هي أيضاً في متحف شحات . وقد وجدنا خلال حفيرتنا كمية كبيرة من الجص المنهار مباشرة أمام المحراب ، يفترض أنها جزء من زخرفة منطقة الانتقال التي تدعم القبة ، يشبه أغلبها المادة المخزنة في متحف شحات .

وقد مكنتنا الحفيرة من تعديل رسم مخطط الجامع الفاطمي الأول في تفاصيله الواسعة ، رغم أن ، تفاصيل كثيرة مازالت غير معروفة (ش4) . إن العقود الصماء المبينة على المخطط المعدل اقترحت بناء على تماثل قريب في جامع عبيد الله الذي بني حوالي سنة 912 ف والحاجة الواضحة في اجدابيا لتقوية جدران اللبن . كما توحي أنصاف الأعمدة المحشورة في الدعامات التي تشبه حرف T في الأروقة المحيطة بالصحن في اجدابيا بسقف مقسم إلى وحدات مربعة ، من الممكن تقريباً أن كل وحدة كانت مغطاة بقبة . وقد لاحظ البكري ✸✸ في الحقيقة ، الاستعمال المكثف للقباب في اجدابيا — فهي وسيلة دفاع ، كما يقول ، ضد هبوب الرياح القوى المحملة بالأتربة . وان عدد الأركان التي تدعم المبنى غير معروف . ومع ذلك فإن الخطوط الرئيسة للمخطط واضحة بما لا يدع مجالاً للشك ، وتظهر تشابهاً صارخاً مع جامع المهدية الأقدم ، كما رممه الكساندر ليزين سنة 1960 على أساس مجساته الصغيرة ، ولكنها موزعة بشكل جيد (ليزين ، 1965) . إن عقد مقارنة بين المخططين المعدلين لجامعي اجدابيا والمهدية (ش 4و5) يبين أن الأخير أكبر حجماً ، إذ يعادل طوله ضعف طول جامع اجدابيا ؛ ويتقدمه مدخل تذكاري رائع (أنظر أسفله 13) في حين لا يوجد في اجدابيا مدخل مشابه . ومع ذلك ، فإن التشابه بين الجامعين جاذب للانتباه . أولاً : يحتوي رواق القبلة في كلا الجامعين على أربع بلاطات أفقية ، وتسع بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وكلاهما يتبع نظام حرف الـ T المتكون من اتصال المجاز ببلاطة جدار القبلة أمام المحراب . وزيادة على ما سبق فإن المجاز وبلاطة جدار القبلة في الجامعين متساويا العرض ، وهذا تطور سجل أولاً في المهدية . ثانياً :

يحيط رواق مفرد بالجوانب الأربعة لكلا الصحنين . إن عقود الصحن في كلا الجامعين محمولة من ثلاثة جوانب على عدد متماثل من الدعامات ، في حين تختلف عن دعامات العقود أمام رواق القبلة التي تتطابق مع عقود رواق القبلة نفسه . ثالثاً : تتقابل العقود التي تحيط بالصحن فيما يشبه الغرف . رابعاً : دعامات واجهة رواق القبلة مزخرفة بحنايا أما الاختلافات الرئيسية فإنها تظهر في غياب المدخل التذكاري في اجدابيا ، وفي مكان المئذنة ، وفي وجود مداخل في جوانب الصحن في اجدابيا . إن هذه المداخل لها أهمية خاصة ، فهي تسبق المداخل الجانبية في جامعي الأزهر والحاكم الفاطميين في القاهرة اللذين بنيا ، على التوالي ، في سنتي **970** و**990** ف

واقترح ، رغم هذه الاختلافات ، أن جامع اجدابيا يمثل نسخة مصغرة من الجامع الذي بناه الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله في عاصمته الجديدة المهدية حوالي سنة **912** ف . ولكن ماذا عن تاريخ اجدابيا ؟ تركز النقاش في الماضي حول تاريخ الجامع على عبارة ذكرها البكري . تقول (وبها حسن البناء ، بناه أبو القاسم بن عبيد الله له صومعة مثمنة بديعة العمل) . حقاً لقد احتوى الجامع على مئذنة يرجعها عبد السيد وليزين وآخرون إلى فترة حكم أبي القاسم الخليفة الفاطمي الثاني الذي حكم من سنة **934** إلى سنة **946** ف . وعلى أية حال يوجد نقش من بين النقوش التي جمعت من الجامع في الخمسينات مخزنة حالياً في متحف شحات **1**. تبين التاريخ **922/310** أو **932/320** 2. (لوحة 3ب) . ويذكر أنه في سنة **912** ف انتقم عبيد الله المهدي من ثلاث مدن ليبية – اجدابيا ، برقة ، وسلطان (سرت) بدون رحمة تجاه مواطنيها إذ إنها احتوت على متعاطفين مع العباسيين . وحوالي هذا الوقت أعاد أبو القاسم الذي كان قائد الجبهة الفاطمية الشرقية بناء أحد جوامع طرابلس . وبالنظر إلى ما ذكره البكري ، والتاريخ المنقوش ، والظروف التاريخية لبداية القرن العاشر الإفرنجي فإنني أقترح أن أبا القاسم بنى حقاً جامعاً في اجدابيا ، ولكن في عهد والده ، ليحل محل جامع مبكر ذكره اليعقوبي (898ف) ربما لحقه بعض التدمير عندما هاجمت قوات الخليفة المدينة .

وفي الختام فان الجامع معاصر تقريباً لجامع المهدية ، وهو تبعاً لذلك ، أحد الآثار الفاطمية المبكرة المعروفة لدينا .

وهذا في حد ذاته كفيل بجعل اجدابيا موقعاً مهماً ، ولكن لدينا مبنى آخر له تقريباً الأهمية نفسها ، إنه المبنى المسمى بالقصر القلعة .

القصر القلعة :

يتكون القصر المنهار ، أو القصر المحصن من مبنى مستطيل ذي مدخل تذكاري وحيد (ش6) . وكان أفضل حالاً في القرن الماضي حيث نشاهد في الرسم الذي أنجزه باشو سنة 1824 ف (لوحة 4 أ) في أثناء زيارته إلى الموقع أن ثلاث غرف ما زالت تحتفظ بسقوفها في شكل قباء أسطوانية وأن أحد أبراج الزوايا ، على الأقل ، كان متوجاً بقبة (عبد السيد ، 1964 : لوحة 57) وقد وصف زوار آخرون في القرن التاسع عشر هذه الملامح ، وأظن أننا على حق في الافتراض أن رسم باشو للقصر أكثر تطابقاً مع الواقع من الرسم الذي أنجزه للجامع . ومع نهاية الحرب الأخيرة لم يبق إلا جزء بسيط من المبنى ، وفي سنة 1947 انهار جزء من السقف المقبى الأخير ، وفي سنة 1952 قامت مصلحة الآثار بتنظيف المبنى بالكامل ، كاشفة عن مخططه ، وفي سنة 1962 ف قامت المصلحة بتقوية الجدران المتبقية . وقد قمنا في هذا الموسم بإنجاز ثلاثة أعمال :

1- نظفنا المبنى من المواد التي تراكمت منذ سنة 1952 ف .

2- وضعنا مخططاً للمبنى بمقياس رسم يعادل 40:1 – المخطط المنشور مع هذا المقال نسخة مبسطة عنه .

3- حفرنا مجسين صغيرين لتوضيح تفاصيل تاريخ المبنى .

القصر مستطيل الشكل (33 × 25 م) ، مزود ببرج دائري قطره 5 م عند كل زاوية من زوايا الجدران الخارجية الأربعة . ويوجد برج مستطيل الشكل في مركز كل جانب : برجان على الجانبين الطوليين ، وبوابة تذكارية في الجانب الشمالي الشرقي ، وجزء من غرفة في الجانب الجنوبي الغربي . وتوجد ساحة مربعة الشكل في وسط المبنى طول ضلعها 14 م .

وتمتد غرف تشبه القاعات على طول جانبي القصر ، في حين يحتل مدخل متقن البناء إحدى النهايتين ومجموعة غرف تحتل النهاية الأخرى .

وقد بنى القصر كله بالحجارة ، عكس الجامع الذي استعمل في بنائه اللبن أيضاً . وأسلوب البناء ، بصفة عامة ، جيد فالحجارة منتظمة ، والتفاصيل –رغم بساطتها- أنجزت بعناية . وبنيت مداميك أبراج الزوايا التي انخفض مستواها الآن تماماً بدقة ، ونحتت حجارتها بشكل مناسب للانحناء المحدد لها . وتوجد حجارة البناء الأسواء في البرجين المربعين على جانبي القصر ، فقد سطرت بشكل سيئ ، وطريقة بنائها سيئة أيضاً . وهنا كما في أماكن أخرى من المبنى يشك الفرد في أن البناء أنجز باستعجال ، وان النهايات غير المتقنة للبناء تعزى إلى السرعة في التنفيذ .

يتم الدخول إلى القصر عن طريق بوابة تذكارية ، زين جانباها بحنايا نصف دائرية الشكل تذكر بحنايا الجامع . وتذكر هذه البوابة بشكل عام ببوابة الجامع الفاطمي في المهدية ويعد هذا النوع من البوابات ظاهرة متكررة للمباني الأفريقية (المغرب العربي) التي تعود إلى ما بعد بداية القرن العاشر الإفرنجي ، وقد تفحصنا ، في هذا الشأن ، مبنى آخر في لبدة العظمى [الخمس] يعود إلى سنة 473 هـ/1-1080 ف ، حسب النقش الموجود به (ليفي ديلافيدا ، 1949 ، بين لوويك أن السنة 473 وليس 493 التي يعطيها ديلافيدا بديلاً) . وهذا المبنى هو قصر الحمام الذي يقع على حافة تل يطل على مدينة لبدة ، وهو مزرعة رومانية محصنة تعرضت إلى تاريخ طويل من أعمال إعادة البناء والإصلاحات . وعلى العكس من التقارير السابقة ، فإن البوابة التذكارية في هذا المبنى تعود بالتأكيد إلى ما بعد العصر الروماني ، فهي غير مرتبطة بالجدار الروماني ولكنها مرتبطة بالجدار المرمم الذي يحمل النقوش . ويعد هذا الاكتشاف مهماً للغاية ، إذ من الواضح أنها البوابة الوحيدة التي لا تزال باقية في كل ليبيا .

يقود مدخل القصر في اجدابيا إلى غرفة مستعرضة مزودة ببابين أحدهما في المقدمة والآخر في الجانب . ورغم أن عبد السيد نظر إلى الباب الأمامي على أنه أصلي . مقدماً بذلك مدخلاً محورياً مباشراً إلى الساحة ،فإن ليزين اقترح في مقال حديث أن هذا الباب ثانوي . لم يشاهد ليزين القصر ولكن اقتراحه صحيح بدون شك ، فقد فتح هذا الباب في جدار مستمر ، تاركاً حواف مسننة ، كما أن أسكفة الباب المعدة بالخصوص لا تقف مكتملة التربيع على الأساس .

وكان هذا الباب هدفاً لأحد مجساتنا ، ونحن الآن على ثقة بأن استنتاج ليزين كان في محلـه . يقع الباب الأصلي الوحيد في الحقيقة ، في الجانب ، وتبعاً لذلك فنحن لدينا مدخل منكسر ، كما في مباني أخرى كثيرة ذات تاريخ مشابه في المغرب من رقاده إلى قلعة حماد .

وعلى أية حال تظهر البقايا الأكثر وضوحاً في تلك الغرف الفخمة التي توصـف بعـض الأحيان بالغرف الثلاث المتوازية التي يتم الدخول إليها عن طريق سقيفة مستعرضة أو حسب كلمات ليزين : غرفة في شكل حرف **T** يجاورها غرفة أصغر حجماً من كل جانب (لوحة **4 أ**) . ولا يزال الجزء المركزي (ساق حرف **T**) المتمثل في غرفة ذات مظهر مؤثر مغطى جزئياً بقبو ، مع عمودين جداريين ونصف قبة عند النهاية الداخلية . ويتكون العمودان الجداريان من أبدان دائرية متوج كل منها بتاج مشطوف فوقه طبلية تدعم حجرة ربـط مزخرفـة بعـض الأحيان بالجص . ويظهر الجص الذي يحمل زخرفة لفيفة نباتية – تشابهاً صارخاً مـع جـص الجامع . ويدعم البروز الواقع عند النهاية الداخلية للغرفة نصف قبة مبنية بالحجارة المنحوتة مع مثلثين كروبين مزخرفين (لوحة **4ب**) وعلى الرغم من الشكل الخارجي المنفر ، فـإن التـأثير العام داخل الغرفة أنيق ومتناسق ، ومنجز بعناية .

ورغم أن الرحالة جيمس هاملتون عد في الخمسينيات من القرن التاسـع عشـر ، المـبنى إسلامياً فان أغلب الكتاب اللاحقين ، بما في ذلك رومانيلي (**1943:243ش 31**) وصـفه بالبازيليكا البيزنطية . وفي الواقع ، سنة **1966** ف نشر عبد السيد أسباباً راسخة عن كـون المبني قصراً فاطمياً ، أو ، حسب كلماته ، قلعة – قصر ؛ قلعة استناداً إلى أبراجه ، وقصر (نقل حرفي) "بالنظر إلى الغرف الثلاث المقببة ، والسقيفة المرتبطة بها التي تسيطر على المخطط العام" . ومع شئ من التردد يقرر عبد السيد أن القصر – القلعة كان مقر إقامة ، دائماً أو مؤقتـاً ، لحاكم محلي . وناقش ليزين ، في الفترة الأخيرة ، شكل القصر ونبه إلى ملامح وجدت أيضاً في العراق .

ويكاد لا يوجد جدل حول التاريخ التقريبي للقصر : فهو فاطمي . والبوابة التذكارية ذات نوع لم يستعمل في المغرب إلى غاية القرن العاشر الإفريجي ، عندما ظهـرت أولاً في جـامع المهدية الذي يعود إلى حوالي سنة **912** ف ويوجد أقدم مدخل منكسر موثق في المغرب ، في رقاده ، وفي القصر المنسوب إلى أبي القاسم الموجود هو أيضاً في المهدية الذي بني في الثلاثينيات

من القرن العاشر الإفرنجي . وتكفي هذه النظائر وحدها لنقترح أن القصر بني بعد سنة 912 ف ببعض الوقت ، عندما جعل الفاطميون من اجدابيا مثالاً [لمن تحدثه نفسه بالعصيان] وقبل سنة 1051 ف ببعض الوقت ، عندما دمر بنو هلال المدينة ، وجلبوا نهاية الاستقرار على مستوى كبير .

إن المعلومات السالفة الذكر كانت مؤكدة تقريباً قبل بدئنا العمل . وخلال الموسم ، شدت انتباهنا عدة ملامح في المبنى ألقت ضوءاً جديداً على وظيفته ، وأصوله المعمارية ، وتاريخ بنائه على ما أظن . وأقترح أن المخطط يحتوي على ثلاثة عناصر وظيفية أولاً ، لدينا المدخل مشتملاً على بوابة تذكارية – نفترض أن استنتاجاتنا في الموقع كانت صائبة – وثلاث غرف متصلة تشكل مدخلاً منكسراً يتم من خلاله الدخول إلى الساحة . ويتميز المدخل بمظهر مؤثر ، وتشغل البوابة ككل 80 م^2 تقريباً – أكثر بقليل من سدس مساحة الأرضية كاملة . وبكلمات أخرى : البوابة كبيرة الحجم .

ثانياً ، لدينا القاعات التي تشغل أحد الجوانب بالكامل وأغلب الجانب الثاني من القصر وهي غرف مظلمة لا ميزة لها ، ويحتمل أن لكل جانب مدخلاً واحداً فقط . وهي تتيح فرصة الدخول إلى الأبراج ، وإلى السقف عن طريق سلالم خارج البرجين المربعين .

وهذه تمثل ، إذن ، العناصر العسكرية في القصر – القلعة ، إنها الأحياء السكنية للجنود وأسلحتهم . وهي تشغل حوالي 200 م^2 ، أقل بكثير من نصف المساحة الكلية لأرضية المبنى . وهكذا ، وعلى الرغم من مظهره الشبيه بالحصن ، فإن المبنى ليس (كما يؤكد أحد الكتاب) في الأساس حصن .

وأخيراً لدينا الجناح الفخم الذي كما يلاحظ عبد السيد يسيطر حقاً على المخطط ، وأن الغرفة المركزية بنصف قبتها ، وأعمدتها المعشقة ، وتيجانها تعد النقطة البؤرية في كل المبنى . ويتم الدخول إلى الجناح المستقل بنفسه من الساحة ، ومثل المدخل فهو معزول عن بقية الثكنة لمن بنى هذا الجناح ؟ تبدو الغرفة المركزية الأنيقة مثل صالة الاستقبال ، وربما أدت الغرفتان الجانبيتان وظيفة السكن . وعلى أية حال فان الجناح غير مناسب كلياً للسكن الدائم ، واقترح أن المبنى أقيم للاستعمال المؤقت فقط ، بحيث يقيم صاحب الشأن الرفيع في الجناح الفخم

وتقيم الحاشية في الغرف الجانبية . وسأحاول التعرف على هذه الشخصية الرفيعة المقام بعد قليل .

ولكن أولاً يجب التحدث عن الجذور المعمارية للقصر . ناقش ليزين ظهور العنصر العراقي في المخطط : أي الجناح الفخم . تعد الوحدات المعمارية المشتملة على صالة في شكل حرف الـT مع غرفتين صغيرتين ، ملامح عامة في العراق . إذ تحتوي منازل سامراء ، مثلاً ، على عدة وحدات مشابهة ، تعود ربما إلى القرن التاسع أو القرن العاشر الإفرنجي (أنون ، 1940:20 ، الخ) . وفي الحقيقة ، يتطابق هذا الجناح تماماً مع "مخطط الحيرة" الذي وصفه المسعودي (القرن العاشر) . وزيادة على ذلك ، يمكن إضافة عنصر عراقي ثان : البوابة . ورغم أن البوابة المهدية قورنت بمبان رومانية ، ومع بوابة القرن الثامن الإفرنجي في خربة المفجر ، إلا أنه توجد ، تقريباً ، نظائر معاصرة في سامراء إذ يوجد بيت واحد على الأقل يشتمل على بوابة تذكارية كاملة مع مدخل منكسر ، ومصادفة ، مزخرفة بحنايا (أنون 1940:17) . وهكذا ، بدون شك ، وجد عنصر عراقي في العمارة الفاطمية الأفريقية [المغرب العربي] . ومع أن هذا معروف منذ عدة سنين ، إلا أن العلاقة بين شمال أفريقيا والعراق تستحق تقصياً جديداً .

تعيدنا بوابة القصر الرائعة مرة أخرى إلى المشكلة : لمن بني هذا القصر ؟ إنه لم يبن – على ما أظن لحاكم . ونحن نعرف أن اجدابيا لها حاكم مقيم ، ولم يصمم القصر لساكن دائم بل لفترة مؤقتة فقط ، ويوحي اتحاد واجهة "عسكرية" مهيبة ، ومدخل كبير – غير متجانس الكبر في الحقيقة – وجناح سكني فخم ، بأن القصر بني لشخص مهم يجب معاملته بطقوس جديرة بالاهتمام . لدينا . دليل واحد فقط حول شخصية صاحب الشأن . يذكر التيجاني 3 ، (القرن الرابع عشر الإفرنجي) أن الخليفة الفاطمي الرابع ، المعز الذي هزم مصر سنة 969 ف أمر ببناء سلسلة من الاستراحات على طول طريق النصر من تونس إلى مصر . هل كان مبنى اجدابيا أحد هذه القصور ، شيد بعجالة فيما بين 969 و 972 ف ، عندما دخل الخليفة القاهرة ؟ نحن لا نعرف على الرغم من أنه يمثل في حكم المؤكد تقريباً استراحة ، وأنه المثل الآخر الوحيد عن مخطط الحيرة في شمال أفريقيا (في المنصورية ، خارج القيروان بمسافة بسيطة) بناه المنصور أو المعز .

يميل المرء ، في الواقع ، إلى التساؤل : كم من القصور ذات المخطط الحيري ربما توجد على طول الطريق الذي سلكه المعز سنة 972 ف .

وإذا تركنا التخمين جانباً ، فإن القصر – القلعة يحظى بمكان مهم في تاريخ العمارة الإسلامية في أفريقيا ، وتبرز اجدابيا ، بامتلاكها لأثرين فاطميين مهمين موقعاً ذا أهمية كبيرة : قصر يعود بشكل مؤكد تقريباً إلى القرن العاشر ، وجامع يعود للفترة نفسها ولا يوجد في ليبيا موقع معروف بغناه بالآثار الفاطمية مثل اجدابيا التي تستحق تبعاً لذلك مكانة على خريطة المغرب في القرون الوسطى .

✸ نشر هذا الموضوع في التقرير السنوي الثالث (1971-1972) مجلة جمعية الدراسات الليبية . تحت عنوان : حفيرة اجدابيا (تقرير مبدئي) ص ص 12-20 لندن .

ملاحظات المترجم :

✸✸ يتحدث البكري عن قباء وليس قباب (نجم – عباس . ص 30)

1- موجودة حالياً في مكتب آثار اجدابيا .

2- النقش يبين الرقم فقط كما هو موضح في اللوحة رقم 3ب وهو جزء من نقش تأسيسي لم يبق منه إلا هذا الجزء ، وبطبيعة الحال ربما تكون السنة عشرين اختفى الحرفان الأخيران مع اختفاء الحجارة التي تحمل بقية النقش ، وقد شاهد العياشي الجزء الذي يمثل ثلاثمائة عندما مر باجدابيا في القرن التاسع عشر الإفرنجي في طريقه إلى الحج (عباس ونجم ص 218) .

3- التيجاني لم يذكر ذلك ، ولكن ابن أبي دينار في كتابه المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ذكر أن المعز أمر بحفر الآبار وبناء القصور على طول الطريق المتجهة من تونس إلى مصر كما تحدث أيضاً عن رحلة المعز بداية من المنصورية قرب القيروان إلى أن وصل إلى القاهرة مروراً بالمدن الليبية المعروفة في ذلك الوقت

مثل طرابلس وسرت ، واجدابيا ، وبرقة (المرج) ، مبيناً أن المعز عندما وصل اجدابيا أقام في قصره الذي بني خصيصاً له (ابن أبي دينار ،ص ص 64-66) .

شكر وتقدير :

يسرني أن أتقدم إلى الدكتور/ عبد الله الزيات بجزيل الشكر والتقدير لتفضله بمراجعة الموضوعات من الناحية اللغوية .

المراجع :

- *Abdussaid , A. , Early Islamic Monuments at Ajdabiyah , Libya Antiqua , 1964 I. 115-19 .*

- *Anon , Excavations at Samarra 1936-39,Baghdad , 1940 .*

- *Hadj , Sadok , M. , Description de Maghreb et de l`Europe au III = IX siecle , Algiers , 1949 .*

- *Goodchild , R. G. , and Ward-Perkins , J. , Journal of Roman Studies (JRS) 1949 .*

- *Goodchild , R. G. , Boreum of Cyrenaica , Journal of Roman Studies (JRS) 1951 , 41 , 11-16 .*

- ***Levi della Vida , G. , Iscrizione araba di Ras el-hammam Annali del Istituto universitario orientale di Napoli , 1949 , N. S. 3, 77-81 .***

- ***Lezine , A. , Mahdiya , Recherches d`Archeologie Islamique , Paris , 1965 .***

- ***Romanelli , p. , La Cirenaica Romana , Verbania , 1943***

- د. محمد يوسف نجم ، ود. إحسان عباس ، ليبيا في كتب الجغرافيا والـرحلات . بنغازي ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، 1968 .

- ابن أبي دينار ، تحقيق : محمد شمام ، المؤنس في أخبـار أفريقيـا وتونس ، تونس ، المكتبة العتيقة ، 1967 .

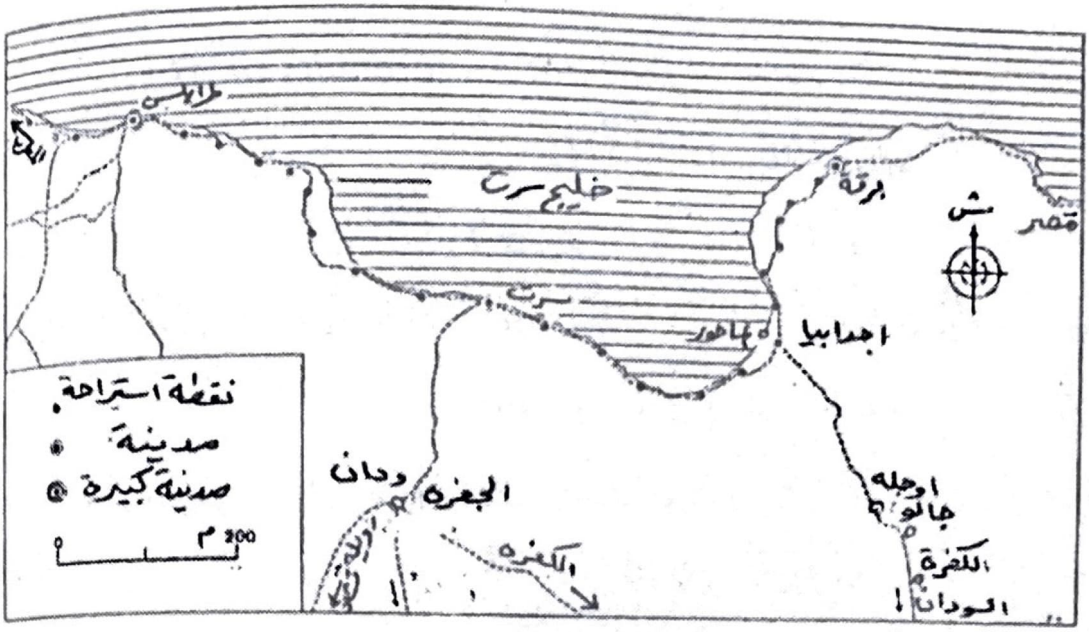

ش 1- طرق القوافل الرئيسية من ليبيا في القرن العاشر الهجري

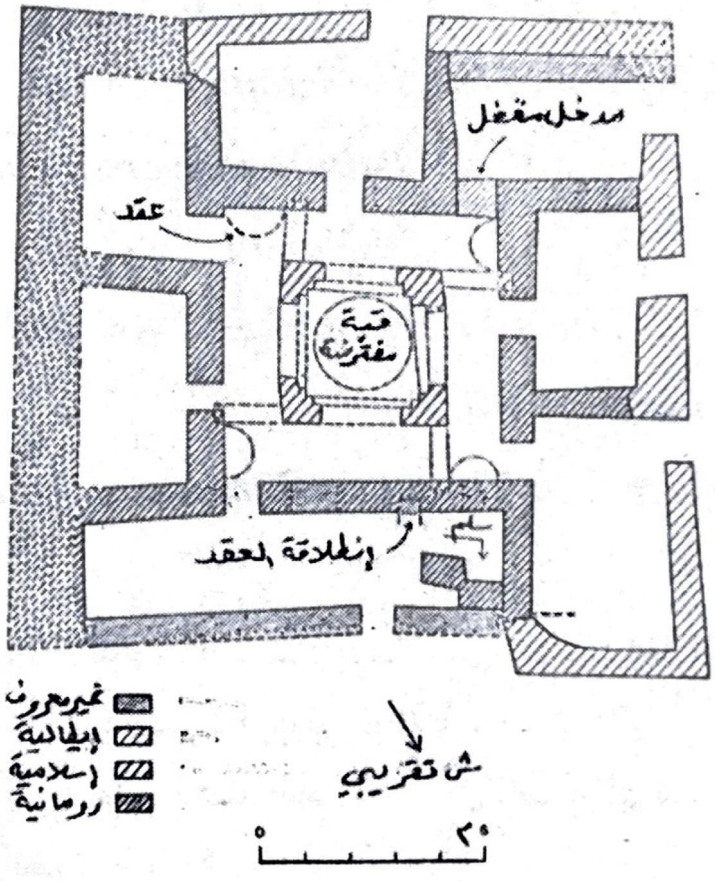

ش 2 - سيدي صحابي

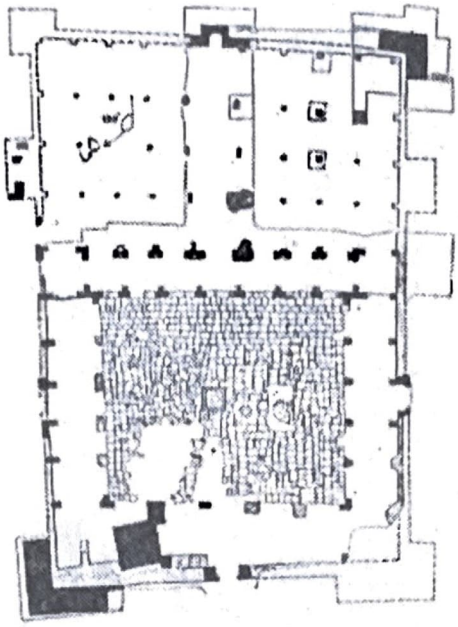

ش 3 - جامع اجدابيا . مخطط مبسط

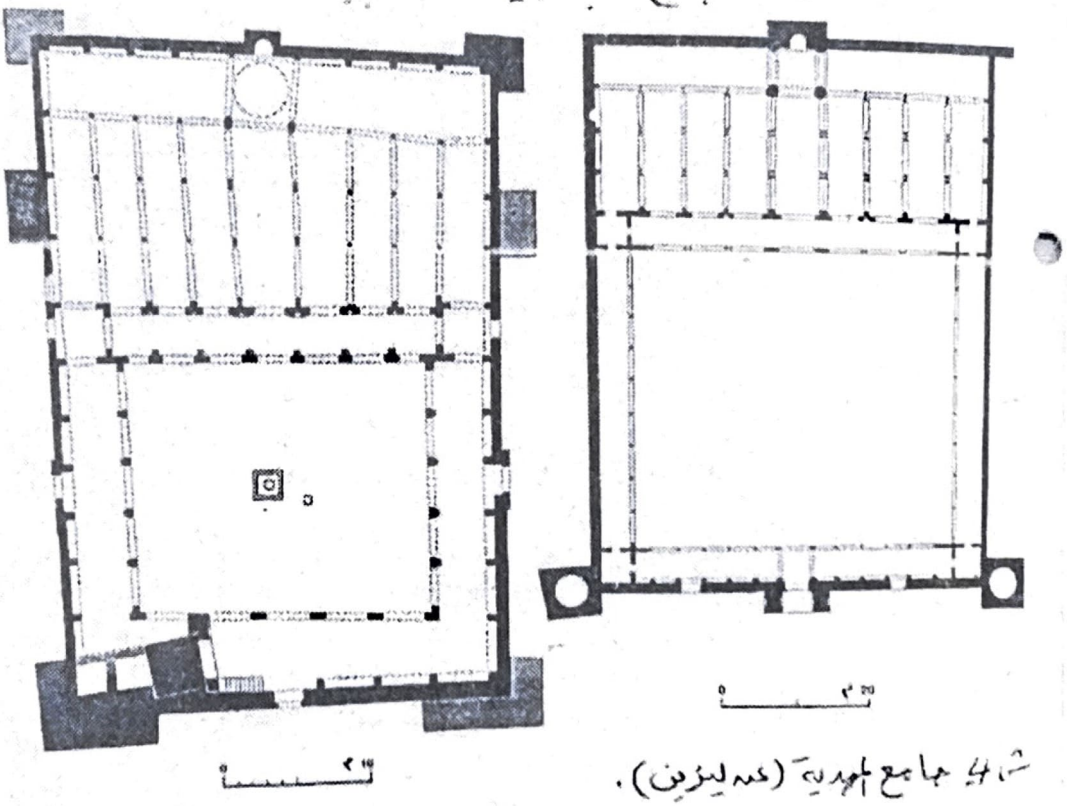

ش 4 جامع الهودية (عين ليزين).

ش 5 - جامع اجدابيا (مخطط معدل)

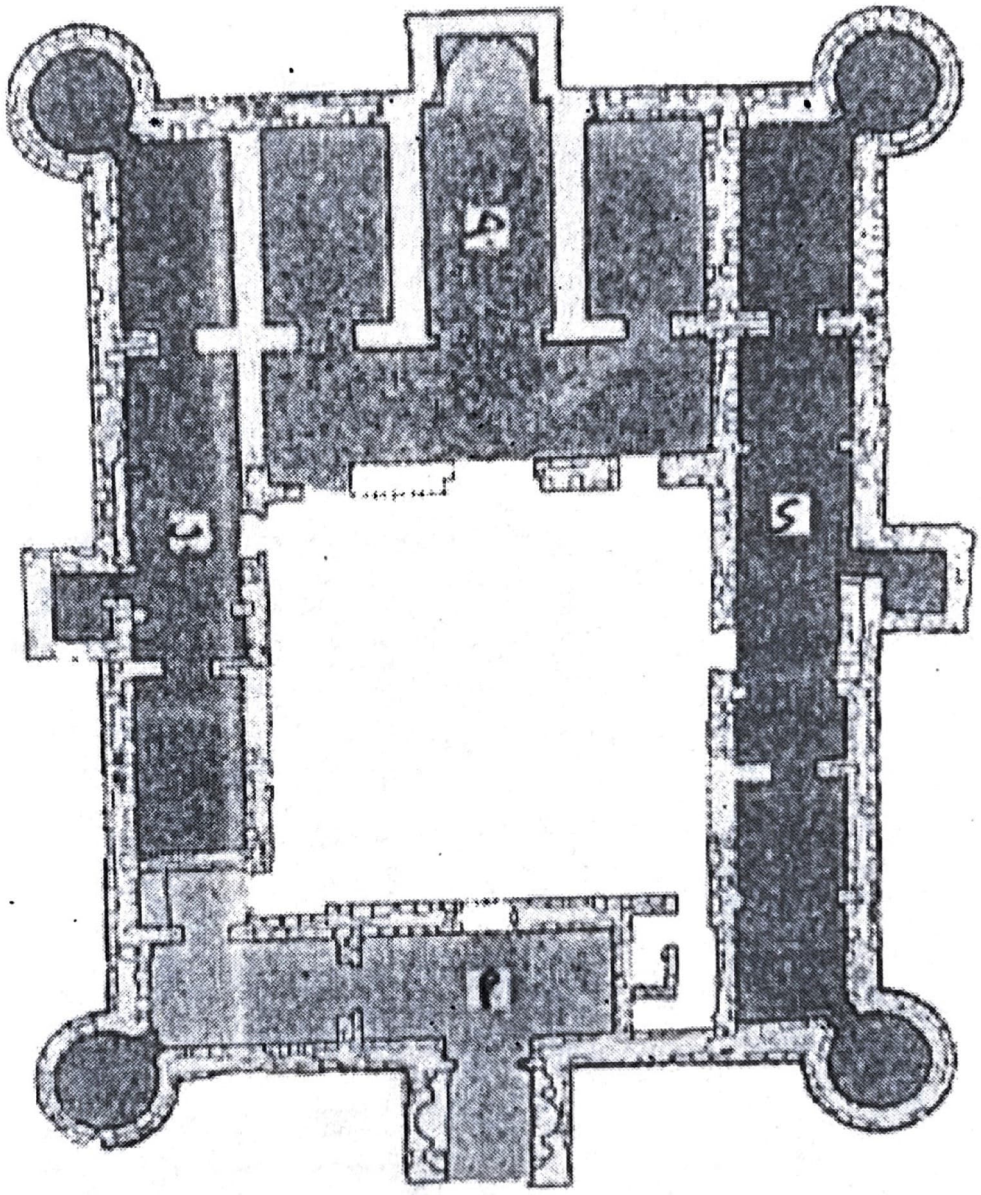
ه
د
ج
ب
٥
٢٥

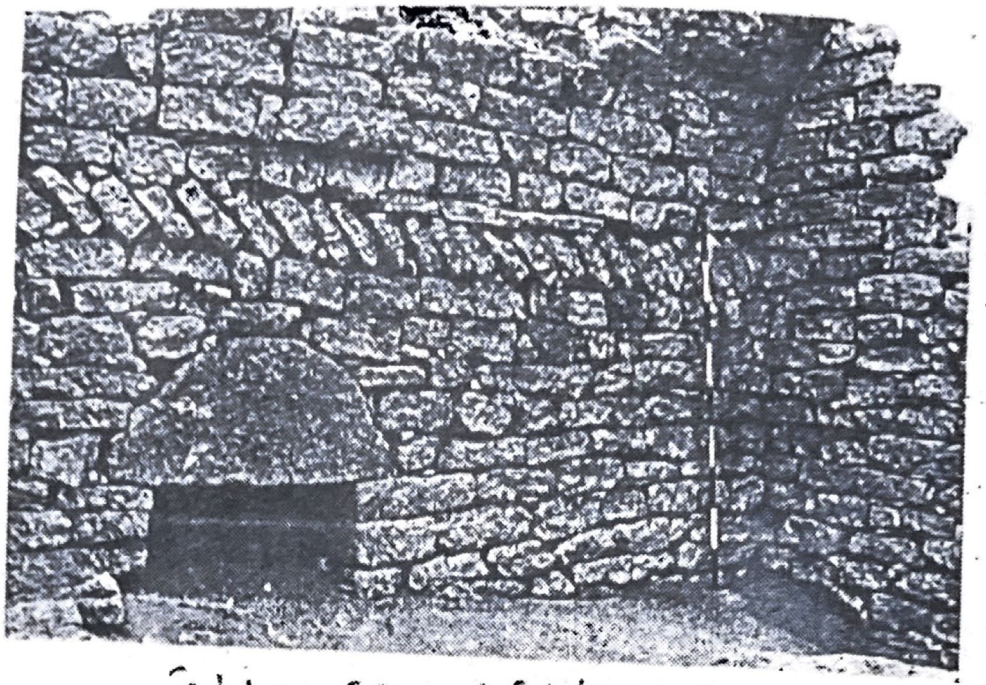

أ- سيدي صحابي : غرفة في صومعة رومانية

ب- مبنى إسلامي من القرون الوسطى، يشير بسهمه الى المثلث الكردي والى عقد من نوع حدوة الحصان.

لوحة - 2 -

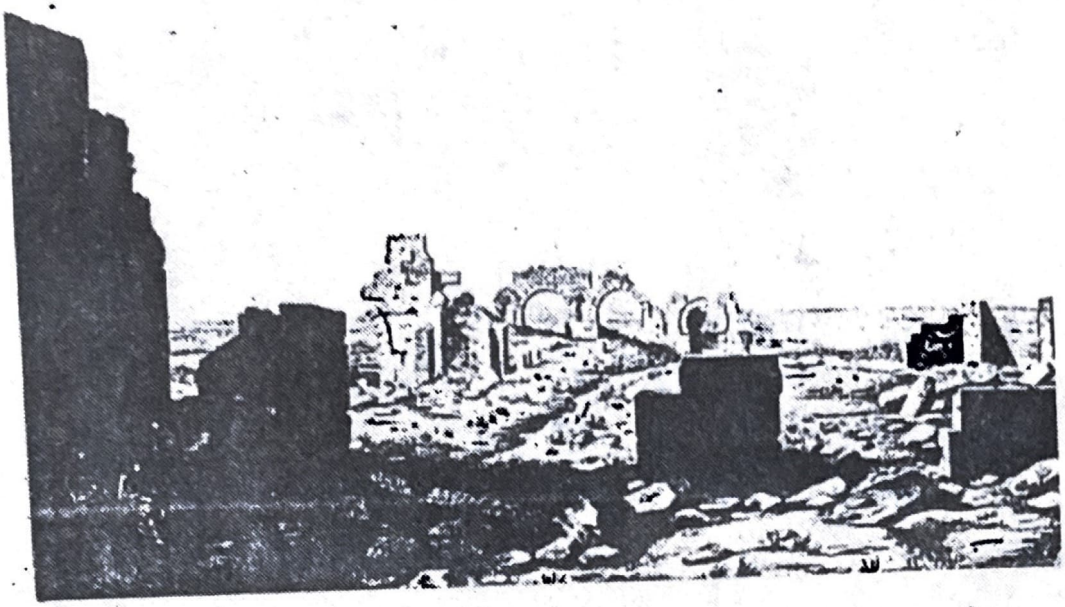

أ - الجامع حسب رسم بـ ش 1824 .

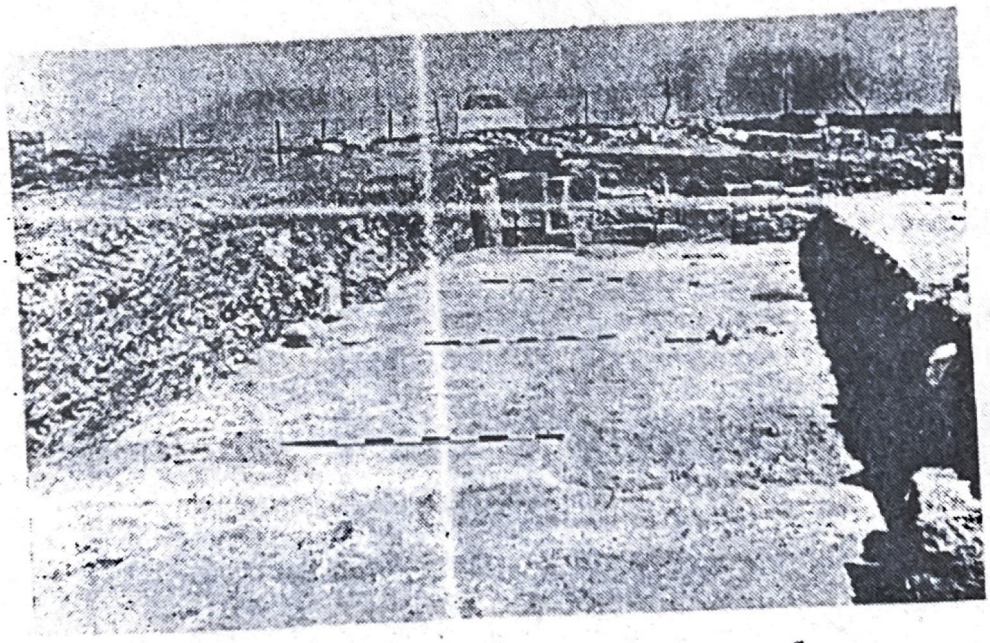

ب - رواق القبلة، المحراب في اتجاه المحراب .

(تصوير د. وايت هاوس)

لوحة -3-

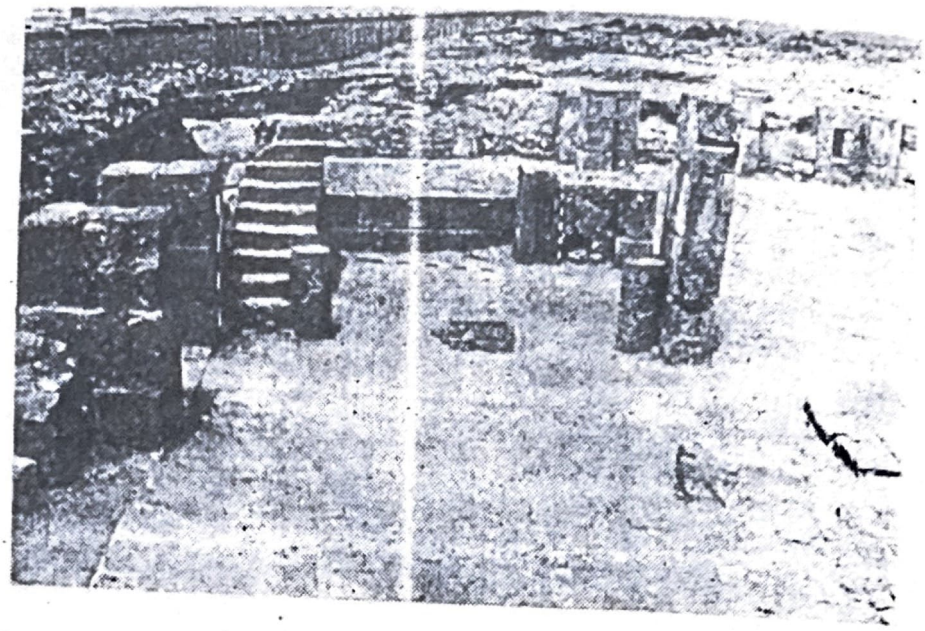

م - بقايا المئذنة - جامع الدانيا
(تصوير د. وايت هاوس)

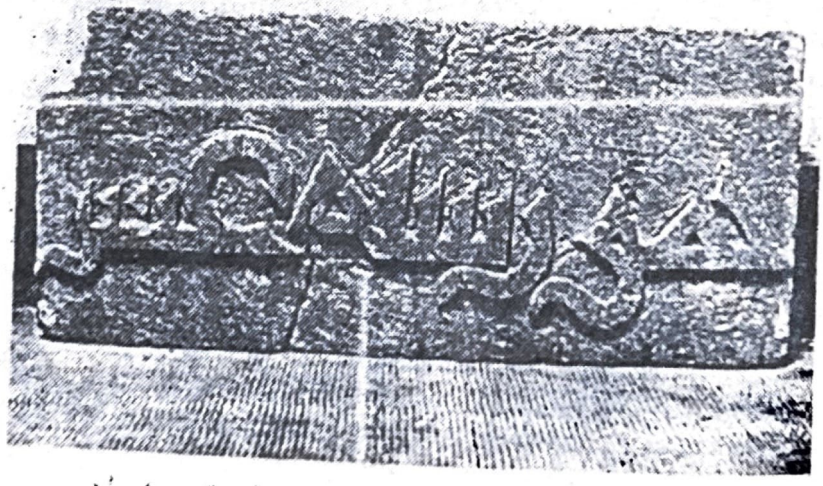

ب - الجامع. نقش كوفي بسيط يؤرخ بناء
الجامع ١٥ [3] أو 20 [3] هـ/ 922-3 أو 932 م

لوحة -4-

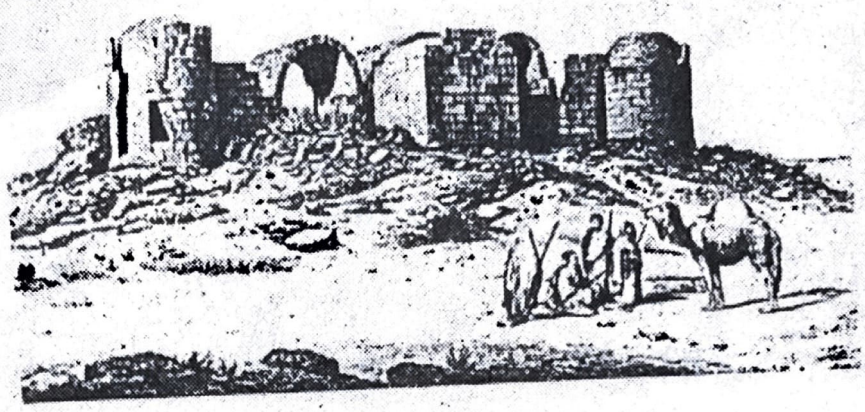

أ- القصر القلعة كما رسمها باشو 1824

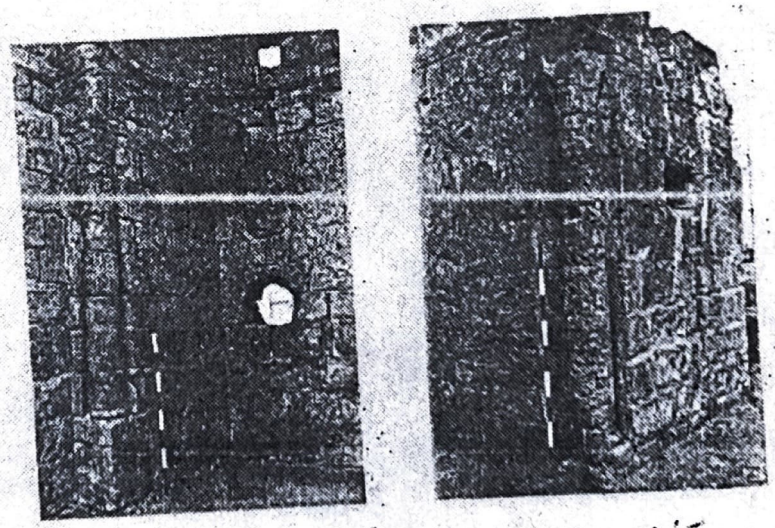

ب- تفاصيل من الغرفة المركزية (9) غرفة الاستقبال حيث يشاهد النمودية المعشقية والمثلث الكروي (المقرنص).